صورة اليهودي في الكتاب المقدس

أ/ د. عشراتي سليمان
معهد اللغة والأدب العربي
جامعة وهران

صورة الرب.. في صورة العبد

مما لا شك فيه أن الصورة التي تشخص عليها الرب - يهوة - في الكتاب المقدس، هي صورة المخلوق البشري، بكل ما تتميز به المنازع البشرية من قوة وضعف، ومن بساطة وتعقيد، ومن رحابة ومحدودية..

ومن غير شك أيضا أن الروح الأنتروبولوجية التي حددت للرب سمات نزوعية بارزة، كان لها ذلك الأثر الواضح في طبع ماهية الإله يهوة بطابع إنسي جلي..

ومن المسلم به أن المحمول الفكري أو الفني يحوز دائما أصداء - اطرادية أو عكسية - من روح الواضع أو من نفسيته ومن المحيط الذي ينتمي إليه..

ولن نكون آليين فنحكم على الرب - يهوة - بذات القيم التي أضفاها عليه مخيال الجنس الذي اخترعه، فتلك نتيجة لا نود أن نتعجلها قبل أن نستكشف الألوان التي شكل منها الرب يهوة صورة شعبه المختار.

وإذا ما تجاوزنا البحث - مؤتقا - في ما يمكن أن يكون هناك من أواصر التماثل أو الإختلاف بين شخصية يهوة والشخصية الإسرائيلية، فإنه لا يمكننا أن نغفل تلك الصلة القوية القائمة بين الرموز الروحيين اليهود من الأنبياء والكهنة، وبين الهوية الإسرائيلية كما صاغها الكتاب المقدس..

لقد حملت تلك الرموز ملامح نزوعية انطبعت بها شخصياتهم وورثها الجنس عنهم بحكم التأثر والتقليد..

ولأن صورة هؤلاء الرموز قد تبلورت - في بعض مستواياتها على الأقل - من خلال المخيال اليهودي، فلا جرم يكون قد لحق تلك الصورة كثير من التفعيل الوضعي الذي أراد الوازع الروحي أن يضفيه على تلك الشخصيات المعلمية التي شاء القدر أن يتأطر بها التاريخ العبري..

من هنا توجب علينا أن نعترف بأن هناك تصاقبا اسقاطيا متبادلا بين الشخصيات الرمزية اليهودية وبين الشخصية الإسرائيلية الجمعية، إذ تعبأت تلك الشخصيات بنوازع شرطها واقع اليهودية التاريخي في تقلباته وتشكلاته..

ومعلوم أن اليهودية - كتابا وجنسا - ظلت تستمد من مراجعها العقائدية طاقة البقاء والدوام، وهو ما جعل الإيديولوجية تستثمر سيرهم على نحو تحصيني مكشوف.. من هنا كان ذلك التوصيف المفارق الذي أعطى لسيرهم أبعادا افتراضية ابتعدت بهم - كثيرا أو قليلا - عن النطاق الرسالي، نتيجة ما نسب إليهم من ضعف وسقوط نال من قداستهم، وشوه المبادئ والشعارات التي نادوا بها..

إن أن مسيرة الشعب المختار، ظلت تتذرع إلى غاياتها النقارية بتبريرات متطرفة، ودأبت تسند تلك التبريرات إلى الرب تارة وإلى أنبيائه ورسله تارة أخرى، إضفاء للشرعية عليها..

ذلك لأن إدماج المقاصد المغرضة والمسلك اللاأخلاقي، في منظومة القيم والمبادئ التي تحكم الجماعة، لابد أن يمر عن طريق المشرع، وأن يلبس رداء المشروعية، وتلك عملية تبييضية، ظلت تمارسها الإيديولوجية الكتابية، توطيدا لعقيدة العهد القديم أمدا، حتى إذا انسدت الآفاق في وجه تلك العقيدة، بسبب التناقضات الذاتية التي تحملها، جاءت اليسوعية كإنقاذ روحي يخرج بالناموس إلى فضاء ينعتق به من الأسر.. لقد كان موقف التقويم الذي باشرته الدعوة المسيحية في العهد الجديد، نقدا جدريا وتجاوزا روحيا وفكريا للذات..

ولن يتعذر على قارئ العهد القديم، إذا ما رجع إلى سيرة أهم الرموز الروحيين الكتابيين، أن يستكشف فيها جوانب النقص التي وصمهم بها الطرح الكتابي، ننزه مبدئيا منها أنبياء الله، لما يحظون به من عصمة إلهية تحميهم من كل زيغ.

من هنا نتج عن تلك المفارقة التي صور عليها الأنبياء، هذا التساؤل الذي ينتاب القارئ وهو يقف على سيرهم، أين هي جوانب الكمال التي يفترض أن تتوفر لهؤلاء الأخيار الربانيين؟.

الأنبياء.. ونوازع الشر الكتابية:

مما لا شك فيه أن اليسوعية، وإن توشحت بوشاح الثورة ضد ما وجدته يروج من تعاليم يهوة في عهدها، إلا أنها لبثت ترتبط بالتراث اليهودي وتستلهم روحه وتستدعي رموزه وشخصياته، لترمم جدار اليهودية، ولتصنع العقيدة التي يسعها أن تساير الزمن وتستجيب لمتطلبات الديمومة..

من هنا ألفينا الإحالة إلى الماضي اليهودي، واستحضار أجوائه ونبواءاته، يشكل منطلق الدعوة المسيحية ومرجعيتها في ما كانت بصدد تأصيله من قيم ومبادئ أرادت أن تقيم عليها صرحها..

لقد وقفنا في الإنجيل، من خلال تبعنا لسيرة الدعاة اليسوعيين الأوائل، على شواهد تؤكد الصلة الوثقى التي كانت تربط أولئك الدعاة بالتراث الكتابي، فقد شاءت تلك المرحلة التأصيلية أن لا تخرج على ذلك التراث، بل لقد جعلت من الرموز التوراتيين مناطها، ومدار وعظها للناس عبر الأصقاع.. لقد مضى أحد الرسل ممن تكفل بالمرابطة في ايطاليا ليزرع مبادئ اليسوعية هناك، يتخذ من الإطار الرمزي التوراتي مرجعيته في الوعظ وفي تجديد الناموس..

لقد وقف هذا الداعية ينوه بالماضي التوراتي، فراح يعدد معالم هذا الماضي من خلال استحضار وجوهه النيرة، قائلا: بالإيمان قدم ابراهيم اسحق

وهو مجرب.. بالإيمان اسحق بارك يعقوب وعيسو من جهة أمور عتيدة.. بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج بني اسرائيل وأوصى من جهة عظامه. بالإيمان موسى.. ترك مصر غير خائف من غضب الملك.. **وماذا أقول أيضا لأنه يعوزني الوقت أن أخبر عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك.. عبرانيين/11.**

ومن البديهي أن يكون لمثل هذا الإستدعاء أثر نفسي وتركيزي دائم، من شأنه أن يبلور الروح الجماعية ويكسبها ملامحها الذاتية، من خلال ما تستلهمه النفوس من قيم ومبادئ، توفرها لها سيرة هؤلاء الرموز..

فالشخصية الجماعية تدين في مستوى كبير من صفاتها وسجاياها إلى ما تستمده من صفات وسجايا عظمائها وأقطابها..

لقد تجددت اليهودية من خلال الدعوة اليسوعية، ولكنها ظلت تحيل على النموذج النفسي والرمزي الذي تكرس لها في سير رجالاتها وأبطالها الروحيين.

إذ أن هناك قوة تصدر عن النصوص المقدسة باعتبارها احتياطا لاشعوريا يسقط على الذاكرة، وخاصة الذاكرة اللاواعية - كما يقول صيبوني - تلك التي تذكر الذات بذاتها، وبهويتها..

Les textes fournissent à leurs tenants et à bien d'autre, des supports de ce qui n'a pas été vecu, influant sur les souvenirs, et mobilisant le fantasme. D. Sibony, les trois monotheismes, p.11

فقائمة الأقطاب التوراتيين التي استدعاها الداعية قد استوعبت مزيدا من الأسماء الأخرى التي كان لها دور تأسيسي في توطيد الظاهرة الكتابية..

(ابراهيم - اسحق - يعقوب - يوسف - موسى - يشوع - عزرا - ارميا - اشعياء..)، لكن الإستدعاء الجردي بهذه الصورة الإرتجالية المجملة، يكشف المنزلة التي تحتلها هذه الأسماء، وهو ما هيأها لأن تكون ذات تأثير على

الوجدان اليهودي.. إذ أن الإستدعاء قرن الرموز الأساسية من الأنبياء بالرموز الثانوية، وهو ما يكفل لنا أن نستبين مجمل الخصائص التي توفرها مصادر الإلهام تلك، إذ أن تلك الخصائص هو ما يحدد صفات القومية ويلون صورة الأجيال..

فالتلقائية التي قد تبدو عليها عملية التداعي هنا، إن هي إلا وهي شعوري أو لاشعوري يمارس فعله بحيوية، في بناء القناعات الفردية والجماعية على نحو ثابت..

فمن خلال استدعائه لهذه الأسماء يكشف لنا هذا الداعية عما يستبطنه من إحالات، تشكل في مجملها وعيه الروحي والثقافي، وبالتالي ضميره..

ولما كانت أقوال القديسين تمثل الحجر الأساس في تشكيل الوعي الجمعي للطوائف والجماعات، فلا غضاضة لنا من أن نعتبر وجدان هذا القديس واجهة تعكس ما يقوم عليه الوجدان الجمعي من مساند روحية ونفسية موصولة بنفسية وروحية أولئك الرموز..

كما هو في الآن نفسه محدد من محددات ذلك الوجدان الجمعي.. إذ أن فاعلية التبليغ والتأثير تعد من أهم الموروثات الفكرية والعقائدية في المجتمعات.. لذلك ساغ لنا أن نعتبر سجايا هؤلاء الروحيين الذين تلقفتهم ذاكرة القديس من ثنايا الماضي العقائدي اليهودي، سجايا جماعية، إذ من الثابت ـ كما أسلفنا ـ أن القطبية الدينية هي من أهم وسائط البث القيمي واستزراعها في الأجيال، وأن ما يسمى بالثوابت، إن هو إلا ذيوع تكرسه المعايير لنفسها، فتتنزل من الأجيال منزلة القداسة والاكبار..

فلا بدع والحال هذه، أن نستعرض هؤلاء الأقطاب الذين أحصتهم كملة الداعية، ونترصد أهم ما يميز سيرهم من أحوال ونعوت وتوصيفات الكتاب لهم، لنتبين في ضوئنها ملامح الإمداد النفسي والنزوعي التي تتلقى منها الهوية اليهودية اشعاعها ونعوتها..

- **ابراهيم:** نبي صالح وورع.. ولكنه إستغنى من خلال اغضاضه عن عرضه، وباستغلاله حسن زوجته سارة.. وهو ما حدث له في مصر.

- **اسحاق:** ابن سارة الحرة ومن وهب بركته في اليعقوبية، بما يشبه المجانية، إذ خدعته زوجته وموهت عليه حتى تضمن التبريك ليعقوب بدل عيسو..

- **يعقوب:** بارع في تحقيق المكاسب وفي انتزاع المكارم واصطناع الهوية والقداسية. ولو بمناضلة الله نفسه..

- **يوسف:** يجسد الضمير الذي لم ينسه التكيف والتمازج، الموطن والموعد.

- **موسى:** نَبي آل به الأمر إلى أن يتقمص روح الزعامة القومية، وأن يخوض مع قومه حربا اجتياح واستعمار وإبادة ضد شعوب لم يكن بينهم وبينه سابق عداوة.

- **جدعون:** هو شخص كما يعرض سيرته الكتاب، ظهر في فترة انهيار قومي اسرائيلي، فاختاره الرب بواسطة ملاكه، وانتدبه ليقاتل من أجل نصرة اسرائيل، فما زال يختبر الرب ويستوثقه من نفسه، كالمتنصل من الواجب، وفي النهاية انصاع للأمر، لكنه ما لبث أن حاد بالشعب عن طريق يهوة..

لقد جاءه ملاك الرب وقال له:

اذهب بقوتك هذه وخلص اسرائيل من كف المديانيين..

فقال له إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فاصنع لي علامة أنك أنت تلكمني، لا تبرح من هنا حتى آتي إليك وأخرج تقدمتي وأضعها أمامك..

.. وقال جدعون لله إن كنت تخلص بيدي اسرائيل كما تكلمت، فها إني واضع جزة الصوف في البيدر، فإن كان طل على الجزة وحدها وجفاف على الأرض كلها، علمت أنك تخلص بيدي اسرائيل كما تكلمت. قضاة/6

لقد كان حربيا كبيرا، ومخادعا ماهرا، وقد **غلب الكنعانيين بفئة قليلة** من المقاتلين بعد أن أحكم خطة تمويهية. ولما انتصر أمر **بتحويل المياه إلى مدنهم وحرمان المديانيين من ذلك. م.س.** /7

وقتل **ملكي مديان زبح وصلمناع**، وجرد الجيوش الإسماعيلية من ذهبها، **وصنع منها أفودا وجعله في مدينته عفرة، وزنى كل اسرائيل وراءه.م.س.** /8

فهو مجاف للعقيدة لا يستجيب إلا بما يشبه الإرغام، وهو مخادع يعرف كيف يدير المناورة ليتمكن من النصر، وإن هذه الصفة ستلازم القوم، دائما، وستكون انتصاراتهم ناتجة عن مكر وخديعة، وليس عن قوة وأصالة. فالعهد القديم يقول: **بالتدبير اصنع حربا..** وإلى ذلك فهو دموي جزار.. وهو استراتيجي باغ، إذ أن تحويل الماء يعني اجلاء الأعداء، وهو ما تفعله اسرائيل المعاصرة..

- **باراق:** هو الشخص الذي وقع عليه اختيار النبية دبورة، قاضية اسرائيل في عهدها، كي ينهض بمهمة محاربة الكنعانيين، فنكل وشرط لقيامه بالمهمة شروطا، **فقال ها باراق إن ذهبت معي أذهب، وإن لم تذهبي معي فلا أذهب، فقالت إني أذهب معك غير أنه لا يكون لك فخر في الطريق التي أنت سائر فيها، لأن الرب يبيع سيسرا (رئيس جيش الكنعانيين) بيد امرأة، فقامت دبورة وذهبت مع باراق إلى قادش. قضاة**/4

فالنكال وهو ان الهمة من صفته، وسنجد القرآن يكبر الصورة في حديثه عن حالهم مع موسى، إذ عاش النبي موسى معهم ما يشبه هذا الموقف حين قالوا له: **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون..**

- **يفتاح الجلعادي:** كان جبارا وذا بأس، وهو ـ كما يصفه العهد القديم ـ **ابن امرأة زانية..** ظهر في حرب بني عمون مع اسرائيل، وأوفى بنذره في التضحية بابنته بعد النصر.م.س./11

- **شمشون:** ولد لامرأة عاقر ببركة من ملاك الرب، وشب غاوية مغرما بالنساء من غير بني جلدته، وتزوج وعاشر فلسطينيات، متجاوزا المحاذير،

فأصابته المكاره، وفي نهاية المطاف هلك وأهلك معه أعداءه من الفلسطينيين. م.س./14

- **صموئيل:** هو أيضا مولود لامرأة عقيم باركها الكاهن.. وقد تركته أمه في خدمة الرب، وكلمه الرب ذات مساء، وأنبأه بأنه سيفعل امرا في اسرائيل كل من سمع به تطن أذناه. ثم أخبره عن الشر الذي سيصيب أبناءه، إذ كانوا **يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الإجتماع.. صموئيل** 2/1.

في تلك الأثناء تواصلت هزائم اليهود على يد الفلسطينيين، حتى أنهم أخذوا منهم تابوت الرب.. وصلى صموئيل لقومه وانتصروا، ثم مضى يقضي لهم، ويدير الخطط مع الرب من أجل أن ينتخب الشعب حاكما باسلا يرد عليهم ضربات الفلسطينيين، فاختارا شاول، ولم يوفق، ثم اختارا داود، فنجح في تأدية المأمورية القومية على نحو ارتضاه يهوة. صموئيل 1-2.

وقد بدا صموئيل على خلاف مع الرب في مسألة عزل شاول، وهو ما يكشف عنه هذا الموقف الحواري بينهما:

قال الرب لصموئيل: حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته عن أن يملك على اسرائيل؟. صموئيل ـ 16/1

- **داود:** فتى باركه الله ومسحه صموئيل ليخلف شاول الذي فشل في صد الفلسطينيين.. تطوع داود في الجيش وقتل جليات الجبار، وبنى مدينة صهيون بالقرب من اورشليم، وسجل العهد القديم عثرات عليه وعلى بعض بنيه، إذ زنى هو بزوجة قائده الحثي وتزوجها بعد أن رتب لزوجها خطة للتخلص منه، وزنى أحد بنيه (ابشالوم) بأخته (ثامار).

- **صموئيل:** كان له ابنان زاغا عن العقيدة وانحرفا عن طريق أبيهما، **ومالا وراء المكسب وأخذا رشوة وعوجا القضاء.. صموئيل** 8/1

إن هذه الوقائع التي سردناها، لم نستحضرها من مصدر آخر غير العهد القديم، إذ أنها وقائع مثبتة في سير هؤلاء الكتابيين كما رواها هذا المصدر.

وليس يخفى الوصم الصريح الذي ألحقته هذه الأخبار بسيرتهم وبقداستها..

وربما استغربنا من المفارقة التي ينطوي عليها موقف التبجيل الكتابي، حين يرتفع بشخص مثل يفتاح الجلعادي إلى درجة القداسة، مع تصريح الكتاب بكونه ابن زنى..

وإذا ما استقرأنا الوقائع السابقة، فسنجدها تشي بسلبية تنال من نصاعة أصحابها ومن مثالية المحتد والمسلك التي يفترض أن تكون لهم..

فجلعاد هو ابن زنى، أي أنه من نطفة حرام. أو هو من أتباع عقيدة يهوة..

وجدعون بدا على روح متشككة، إذ مضى يمتحن ربه ويعنت عليه قبل أن يستجيب..

وباراق كان على مستوى من الجبن والكلل بحيث ارتضى الإستظلال بامرأة في رد الضيم عن الحمى.

وأما **شمشون** فقد عاش الغواية ومات منغمسا فيها.

وأما **صموئيل** فعلى الرغم من صلاحه، إلا أنه قد عارض ربه في خلع شاول عن قيادة اسرائيل، وانحرف أبناؤه في حياته بالقضاء وتعاطوا الرشوة، الأمر الذي جعل الشعب يطالبه بإيجاد ملك يسوسهم، فكان تنصيب شاول على رأسهم.

أما داود فقد تقرر أنه زنى بالحثية، وأن الرب قضى عليه - جراء ذلك - بدوام الحرب وبسقوط حرمه في الغواية.

لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة.. هانذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك، وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس.. صموئيل - 12/2

ولعلنا نتساءل حيال هذه المعطيات العجيبة، كيف شاب النقص والتأثيم سيرة هؤلاء المبجلين على هذا النحو الذي كشفت عنه التوراة؟.

وكيف احتفظت لهم المواجد الدينية - رغم هذا - بذلك الحظ من الرفعة والسمو، بحيث أضحوا شواهد ورموزا روحيين تستلهم الأجيال ذكراهم، على مر العهود؟.

من المسلم به أن التوراة هي متون تسجيلية استهدفت حفظ تاريخ العرق اليهودي وإثبات شجرته.. وتذكر المصادر أن كتابتها استغرقت زهاء الألف عام، الأمر الذي يكشف عن صبغتها الأدبية والتأريخيبة الوضعية..

ومعلوم أن عوارض التشتت والتبدد قد ظلت تعصف بالسلالة عبر القرون، وتقذف بأشلائها من صقع إلى صقع. لذلك سعت التسجيلية الكتابية إلى أن تعتمد الجرد والتوثيق والتغطية الكرونولوجية في محاولة منها لإضفاء التواصل والوثوق على مادتها التي حفلت بالخيال والتهيؤات.. والتي كان من نتائجها بناء هذه المركزية العرقية. Ethnocentrisme التي هيأوا لها لأن تكون جوهر الثقافة الكونية، غافلين عن المخاطر التي تحملها، والتي من جملتها زرع الروح المناهضة للسامية..

وقد وجدت هذه التسجيلية في المدد الغيبي، وفي إشراك يهوة في المسيرة، الذريعة المنطقية التي تخفي بها المفارقات والغرائب التي وضعها الخيال ودعمتها الفانتازيا في تلك المسيرة..

وتضافرت أحلام وتطلعات الفرد الإسرائيلي الكتابي، مع إرادة الرب يهوة، فهيأت لاسرائيل وثيقة أيديولوجية أدارت حوادثها على تجارب أنبياء وكهنة تكفلوا على مدى الأعصر، بإعادة القطيع إلى حظيرة الرب يهوة..

من هنا وجدنا الرؤية الكتابية تصدر عن حس تسديدي، تقويمي، تتداعى فيه القيم لا عن موضوعية وتجرد، ولكن عن ذاتية وحساب.. الأمر الذي تحورت معه الحقائق، وتغيرت به الوقائع، وخرجت عن نصابها التاريخي، لتضحى

معطيات عاطفية مفتعلة، تباين إلى حد، مساقها الفعلي، وصحة حدوثها.. لأنها باتت تتكفل بتحقيق غاية توجيهية تأثيرية، لا يهمها الحدث في ذاته، ولا الكيفية التي وقع بها، بقدر ما يهمها أن تصنع من ذلك الحدث قيمة إحيائية، تكفل للعرق أن يصمد، وأن يدوم، لا يضيرها أن تتكلف الإدعاءات والمزاعم والتحريفات من أجل تحقيق الغرض الإيديولوجي..

ومن الثابت أن التلمود قد تخصص في هذا التوجه الوضعي، بحيث قام على استحداث تراث استنه الكهنة وأهل الإجتهاد من اليهود، في تكفلهم برعاية العرق، وتوفير العوامل التي تمكنه من أن يتكيف مع التطورات..

لقد اعتبر التلموديون التفعيل الإجتهادي الذي يقوم به الكتابيون في كل عصر، خاصة بعد انقطاع مرحلة التوصيل الكلامي التي كانت تربط الرب يهوة بهم، هو من قبيل المعجزة التي تتهيأ للشعب اليهودي على يد متنوريه الروحيين.

من هنا لا غرابة أن يعتبر التأويل في معتقدهم تخريجا للمعنى من باطن الكلمة، يتيحه الرب لعباده ويرتضي منهم أن يسندوه إليه.. وذلك ما أوقعهم في الدس وافتعال الأقوال على الرب:

.. أما وحي الرب فلا تذكروه بعد، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه، إذ قد حرفتم كلام الحي رب الجنود إلهنا.. ارمياء.

من هنا لا نجد ضيرا في القول بأن الظاهرة التسجيلية الكتابية قد شكلت - بذاتها - حدثا إيديولوجيا مكشوفا، واعتمدت في الآن نفسه على الوازع الإستراتيجي في توصيل رسالتها، إذ نحت بالمادة المسرودة منحى أدبيا، تقوم (بتشديد الواو) فيه المعطى التاريخي تقوميا ذاتيا، بحيث كان يعيد صياغة ما كان، أو افتراضها، وحملها روحا يتبرر بها ما يكون أو ما يجب أن يكون..

لذلك ساغ لنا أن نتشكك في كثير من الإختلالات التي قررها الكتاب، خصوصا عند سرده لسير الأنبياء، إذ جاء كثير من تلك المسرودات مهزوزا من

حيث موضوعيته، وذلك لما لابسه من روح مغرضة طغت على الأخبار، ومن نزعة وضعية بادية فيه..

ترى ما قيمة أن يفصح الكتاب المقدس عن أحوال ضعف إنساني في شخص الأنبياء والرمزيين؟.

لا نشك أن ارتباط النبوة - عند الإسرائيليين - بالإستيطان، قد أضفى عليها طابع البرنامج القومي الذي يقاس من خلاله، مستوى نجاح أو فشل النبي في تطبيق الوعود وتنفيذ الإلتزامات..

وإذا كانت بعثة الأنبياء - كما قررها العهد القديم - قد ظلت تجعل في مركز مقاصدها، تنفيذ برنامج الرب الإستيطاني والإلتزام بوصاياه، فإن عجلة التوطين قد ظلت تدور خارج المحور التعايشي وضمن نطاق أممي رافض، لادراك الأقوام التي طرقها الإجتياح الإسرائيلي مدى المخاطر العرقية التي حملها دخول القبائل الإسرائيلية إلى المنطقة..

من هنا اتصفت المسيرة التاريخية اليهودية بالآلية والدوران في حلقة مفرغة، إذ أوشك كل شوط تاريخي منها أن يشابه الشوط التاريخي الذي يليه، وتواترت الأهداف المحركة لمسيرتهم.. فالغاية ظلت واحدة، ومكانة هذا النبي أو ذاك تترتب في ضوء توفقه أو اخفاقه في انجاز ذلك الهدف..

من هنا كان التقويم الكتابي يأخذ بعين الإعتبار، انجازات الأنبياء والكهان والرمزيات في صلتها بمشروع التوطين كما قرره الرب..

فلا بدع والحالة هذه، أن يعتد الوجدان الإسرائيلي بهؤلاء الفاعلين الربانيين، رغم ما شاب سيرتهم من ضعف مسجل..

وربما تأتى ذلك بكون الكتاب ذاته قد أخذ في بناء ايديولوجيته بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، فطبيعة المطمح التوطيني نفسها، بما انبنت عليه من قهر وتسلط، قد سوغت عثرات الأفراد الذين جعلهم القدر يسهمون في تنفيذ وعد الرب، من هنا كان ذلك الإغضاء عن ضعفهم..

وإذا ما التفتنا الآن إلى تلك القيم التي سجلها الكتاب عن مواقف الرموز ـ موضوع بحثنا ـ رأيناه ورغم سوقه إياها مساقا سلبيا، إلا أنه قصد من وراء ذلك تبييضها، مفسحا على نحو من الانحاء للشعب أن يوسع من هامش ضوابطه.. من هنا يكون الكتاب المقدس قد وقع في مزلق الترخيص لليهودية إزاء مقترفاتها الأخلاقية والمسلكية..

لقد برر العهد القديم قيمة الزنى (بمعناه الحرفي والمجازي = الخروج عن العقيدة اليهودية)، حين علا بابن الزنى (جلعاد) إلى رتبة القديسين، وبرر الفعل أيضا حين نسب هذا الفعل الحرام إلى داود وأسرته..

كما ثمن الغواية، بجعل شمشون الفاسق، رمزا للتضحية بالذات من أجل صيانة المبادئ..

وزكى مسلك الجبن، حين سرد أخبار المناورة والنصر التي تحققت لباراق..

وهون من شأن الرشوة كسلوك تسييري اغتصابي، حين أماط اللثام عن تعاطي القضاة لها ---> أبناء النبي صموئيل.

لقد جعل العهد القديم السلوك الإنساني يتردى في هاوية الإنغماس والخطيئة، بفضحه سلوكات غير سوية، وأفاعيل غير مشروعة اقترفها أنبياء وروحيون اسرائيليون، كان التأثر بهم من قبل الأجيال يشمل النواحي الإيجابية والنواحي السلبية من سيرتهم على السواء..

إذ المسألة هنا تتوقف على الإستعداد والقابليات.. ولما كانت طبيعة السقوط أملك على الإنسان كلما غابت عنه الضوابط أو استرخى زمامها في نفسه، فلا جرم قد تيسر على الكتابي أن يسوغ سلوك الإنحراف والزلل الذي يقع فيه، بما يجده في سيرة الرموز من سوابق انحرافية نسبها إليهم الكتاب..

على أن هذا لا يعني أن العهد القديم قد صرح بإباحة المحظورات الأخلاقية، أو أطلق اليد فيها لتابعيه، وإنما يعني أنه ارتفع بالخطيئة حين جعلها قدر

الأنبياء، إذ وظفها بتلك الصورة توظيفا مغرضا، ولم ينظر إليها كقطيعة تفصم الروابط بين الرب وعبده، أو كعائق يقعد بالإسرائيلي عن المضي في مشروعه الكتابي الإمتيازي..

وستقرر شريعة التوراة أن الشر شر متى ارتكبه الإسرائيلي ضد الإسرائيلي، وهو خير متى استهدف الأجنبي..

من هنا انحلت العقدة بالنسبة إلى الإسرائيليين إزاء مفهوم الحرام، وغدا الترخيص يشملهم عن كل ما يقترفونه من خطايا في سبيل توطيد عقيدة يهوة.

بل إننا حين نقرأ بعض الإستجابات الكتابية في مواقف انحرافية، ليتملكنا شعور بأن روحية هذا الكتاب روحية تطبيعية، أي أنها توعز - على نحو ما - بتقبل الإنحراف السلوكي إذا صدر عن اليهودي، مهما كان انحطاط هذا السلوك وإثميته..

لقد حكى العهد القديم مثلا، أن رأو بين بن يعقوب نزا ذات مرة على سرية أبيه، وسمع به يعقوب (ولم يفعل شيئا).. تكوين /35.

إن ايراد خبر كهذا، وفي غضون تعاليم كتابية مقدسة، لمن شأنه أن يقرب الشذوذ إلى النفس الإسرائيلية بصورة لا غضاضة فيها، إذ أن السلالة ستجد نفسها موثوقة الصلة في الإنحراف بأسلافها..

ويدخل في هذا السياق أيضا، عقاب الرب لداود أو حكمه عليه، لما اقترف من فاحشة الزنى:

لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة.. هانذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك، وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس.. طمؤئيل - 12/2

فقراءة متدبرة لنتائج هذا الوعيد الالهي، ستكشف عن البعد القدر الذي أخذته ظاهرة الزنى في الوسط الإسرائيلي، وضمن نطاق النخبة، التي يفترض أن تكون مناط القدوة والاستلهام..

آخذ نساءك أمام عينيك، وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس..

فلا غرو أن يغدو سلوك الزنى بالمحرم من ظواهر الحياة بين الجماعة اليهودية.

ومما لا شك فيه أيضا أن روح التنازل عن الفراش، وتبادل المضاجع، وسلوك العري والمباضعة في عين الشمس (المشاتي والمصائف) هي من شهوات الثقافة اليهو ـ مسيحية التي توطدت عبر العصور، وتفاقمت، إلى أن أضحت نظام حياة تأخذ به أوساط في المجتمعات الغربية، إذ آلت تلك الشهوات إلى قيم مدنية (ارتقائية) مشتهرة على نطاق عائلي..

وإذا ما استجمعنا تلك الأعراض من الضعف البشري التي سجلها العهد القديم، ووصم بها زمرة مبجلة من أقطاب اليهودية، وجعلها من صفاتهم الأخلاقية والسلوكية، وجدنا منزع الغواية/الزنى، والطمع/الرشوة، والخوف/الجبن، من العلامات التي وسمت هؤلاء الرموز الذين ظلت الذاكرة الاسرائيلية تستحضرهم وتحتفي بهم على مدى الدهور، وظلت وجهاتهم الروحية تنفح الأجيال وتعبئ مواجدهم.. الأمر الذي عمل على صبغ الشخصية الإسرائيلية في العمق، بصبغة الاستهتار بالقيم، والذلة في المواجهة، واللهفة على الكسب.. وهي أحوال انبنت عليها جدلية الكفر والإيمان التي دارت عليها محاور العهد القديم في رمتها، إذ أن روح العهد القديم في جوهرها السماوي، على ما عرى هذا الجوهر من تبديل، ظلت تجاهد من أجل استئصال هذه النوازع من النفس العبرية.. إنها منازع أخلاقية تنطوي علىٰ روح تجذرت فيها الأصالة العدوانية، إذ أن مسلك الاستهتار = الزنى يقوم على نزعة تدنيس

الآخر وانتهاك شرفه، واعتلائه ـ بالمعنيين ـ الزنى يقوم على نزعة تدنيس الآخر وانتهاك شرفه، واعتلائه ـ بالمعنيين ـ وغلبته، وكذلك مسلك اللهفة = الرشوة = الصفقة، إذ هي تجسيد أناني، استئثاري بواعثه كوامن استعبادية، تثوي في الأعماق.. وكذلك حال الجبن والذلة، إذ فيه يتجلى وازع حب الحياة، حب أفرغ من دافعيته النباءة، نتيجة تضخم نهيؤات غرورية حول الذات وامتيازها.. وكل ذلك مرتبط بتاريخية عملت على تثبيت هذه المنازع في الفرد والجماعة بواسطة النص الكتابي الحاضر على الدوام في صورة قيم تتلقاها السلالة بالتنشيئة والتلقين من جهة، ومن خلال التحولات الزمانية المكانية التي تقاذفت السلالة وشتتها في الآفاق، وهو ما جذر فيهم الإحساس بالضياع، أحساس عمق في الذات اليهودية عقد الحرمان والنقمة والدهاء.. لقد وفق العهد القديم في تحميل شخصية يعقوب الأب الصفات والخصائص الفصامية التي ورثها عنه العرق وجعل منها مصدر قوته وخطورته، إنها صفات وخصائص تتمحور حول الختل والمخادعة في كل الأحوال..